مخطوط كتابات جامع الأخبار والخطاب والرسائل والفتاوي للشيخ أحمد بن محمد بن علي بن مصطفى التراري الورسيني

بقلم د/قدور ابراهيم عمار المهاجي*

تقديم

لقد كان الموروث الفكري والثقافي، ولا يزال يمثل مركز الثقل الحضاري للأمة العربية الإسلامية وما أعقبها من حضارات في نفس الفترة وما بعدها، التي تفاعلت فيها شتى المؤثرات الأدبية الاجتماعية، بما كانت عليه من ميزة نابعة عن بساطة البداوة والترحال التي انفردت بها أيامها عن بقية الأمم الأخرى في بعدها الفكري والثقافي والديني والاجتماعي حتى غدت حلقة وصل بين الحضارات السابقة التي ازدهرت في المنطقة العربية الإسلامية بِبُعْدَيْها التاريخي والجغرافي، إلى أن أمدها الدين الجديد بمبادئ وقيم كانت عاملا آخر لها في الازدهار العلمي والأدبي، الذي استطاع به العرب من المسلمين أن يمدوا سلطانهم في مساحات شاسعة من العالم القديم، حيث كانت مراكز تجمعات شعوب الشرقين الأدنى والأوسط، وكذلك المراكز الأخرى التي شهدها الشمال الأفريقي حيث كانت تمثل المحطات الأولى التي مارست في الفتوحات الإسلامية تجاربها الحضارية الأولى، وذلك خلال صراع طويل وصبور مع الطبيعة ومجمل نتاجات هذه الشعوب في مختلف جوانب مفرداتها الثقافية والفكرية والدينية والأدبية، هو الذي انعكس في فكر الإنسان فيها على شكل كتابة أو تدوين، تلك التي استطاع الكثير من أفرادها في العلم والثقافة والفن، أن يحملوها أفكارا وتأملات إنسانية وفكرية وعقائدية ودينية، وأن يبسطوا سلطان نُفُوذِهِمْ عليها، فأحدثوا كثيرا من التغييرات والتوجيهات من

* كلية الآداب اللغات والفنون ، جامعة وهران، الجزائر

حيث الدين والثقافة والأدب والاجتماع وكونوا حواضر علمية فكرية ثقافية، أصبحت تعرف بمناهجها في التربية والتكوين والدرس والتحصيل، وبتأثيراتها في مجالات الإنتاج الفني والفكري الذي أصبح يرتبط بشكل أعمق وأقوى بالظواهر الحياتية وبخاصة منها التقصي في قضايا الدين والتراث والحسب والنسب، وثقافات أخرى فيها من التاريخ ما فيها من المنظوم والمنثور، من المثل والحكم والخطب والرسائل والفتاوى وفنون أخرى كثيرة، وقد جاء هذا المخطوط الموسوم بكتاب:

جامع الأخبار والخطب والرسائل والفتاوى،

لشيوخ الذكر من أهل زاوية سيدي محمد بن اعمر والتكايا والربط ومساجد كتاب الله،

للشيخ أحمد بن محمد بن علي بن مصطفى التراري الورسيني المتوفى في عام 1304 هـ

وهو مخطوط أتوافر اليوم على تحقيقه ودراسته، بحيث يكاد يكون فريدا في حقله، وتأتي أهميته العلمية كونه يحمل من إلينا من الأخبار والروايات والتراجم والسير والأنساب، ما لم تتوافر عند غيره من معاصريه من الذين أتوافر على ترجمهم فهو حري بالدراسة والتحقيق لما يحمله من قيمة تاريخية، سلك فيه صاحبه مسلك الأوائل في نقل الأخبار والتعريف بالكثير من الأعلام الواردة فيه، لكنه اختلف عنهم في كثير من مناهجهم كعدم ذكره للمصدر والمرجع التي اعتمدها الأوائل أساسا في تثبيت ما يجب تثبيته من حيث أهمية الرواية وتوثيقها التي تعين القارئ على ما جاء في غيرها من الخلاف، وذلك لاعتبارات منهجية تتعلق أساسا بتحضير القارئ والباحث لما سينشر لاحقا حول هذا المخطوط أو ذاك، من عمل المحقق الذي يتمثل في منهجيته التي سلكها في دراسة النص داخل المخطوط، من حيث ما يقوم به من تقويم الخطأ وإصلاحه، حتى يدخل الثقة إلى نفس القارئ،

وهذه أولية المخطوط قوله:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين،

فبحمده تعالى وحسن عونه الذى سخر لنا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على نبينا محمد الذي بعثه الله رحمة للعالمين وسلم تسليما،

فإنه كان لزاوية سيدي محمد بن اعمر والتكايا والربط ومساجد كتاب الله وسنة رسوله أعلام من أهل الذكر والتوحيد وعلوم اللغة والشريعة والدين، بقيت آثارهم معلقة في الأذهان، وعفت أخبارهم عبر الأحداث والزمان، غير مقيدة في كتاب، ولا مجملة في تصنيف، فيها من الخطب والرسائل والتراجم والسير والفتاوى، وأهل الصوفية والطرقية والذكر الحكيم، إلى أن أراد الله تعالى جمعها وإظهارها إلى الوجود، فعرضتها على مسامع مشايخي، فكان منهم السامع ومنهم المجيب، مما حفزني إلى جمعها وليس لي في تأليفها من الافتخار أكثر من حسن الاختيار، وندبني إلى تصنيفها ما رأيته من رغبة شيخنا العلامة العالم العامل الجهبذ المهاجر في سبيل الله أبي محمد المهاجي بن علي بن الخضير[1] بن أبي القاسم بن محمد بن ابراهيم بن القندوز بن مفلح بن احمد بن أيوب بن سيدي محمد بن ابراهيم بن سيدي محمد بن ميمون[2]، الجامع لفروع امهاجة من الأدارسة الحسنيين لآل بيت رسوله الأمين، وله في ذلك تتمة مقيدة ومثبتة اجتزأت الحديث عنها لضيق المضمار وعدم المناسبة في الاختيار، هذا ما وقفت عليه بخط يده عن نسبه الشريف منسوخا من تقاييد موثقة لجمع[3] من الأعيان، مختوما بخواتم أمراء وسلاطين وحكام، وعن حسبه التليد، ومكانته العالية في الظهور، ذا نية حسنة وعلى هدى السلف الصالح، وقد أجاز لي روايته وتقييده في هذا المقصد المريد، والتأليف المشتمل على سرد غرر الأعلام من أهل التاريخ والعلوم والأحكام،

كان شيخنا أبي محمد المهاجي عالما ساد بالعلم وَرَأَسَ، فقيها مستنبطا متميزا بالإحسان، والفصاحة والبيان، انتشر ذكره، شديد التعصب لأهله، كثير الذكر لهم قوي الاعتزاز بهم، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، وأن لي في شانه لخبرا ما سمع بمثله شيخ ولا إلى مراده، وأعانني على اجتهاده،

معرفته على مصنوعها بمطبوعها، صاحب بديهة مما يرتجل منها أو يروى، أو من كان مستنسخا مصورا أو منتحلا مزورا،

فهو صاحب ثنية[4] وعلم وعقل، وصحة ضبط ونقل، له عناية كاملة بالعلم وتقييده وروايته وجمعه، وله مخطوط في جزأين مقروء ومنشور سماه: (الاستنباط في علوم اللغة والشريعة والآثار) قرأت فيه شيئا كثيرا من علوم اللغة والفقه والسير وعلم النسب والخبر، وكان كتابا جليلا مفيدا، موفقا في تأليفه، فاق به من تقدمه من رجال عصره، استكملت منه أمري واستوفيت منه خبري،

نشأت على الأخذ عنه، والجلوس إليه مدة خمسة عشر عاما أو نحوها أحضر درسه، ولا أغيب عن ديوان أئمة سلوانه، ولا أفارقه أكثر نهاري، أَمْلَى عليَّ من حفظه وإتقانه، ما كان خافيا علي مما أبدع وألف في زمانه، من أهله وشيوخه بأرض اغريس، وقد أجاز لي ذلك بخط يده، وله من نتائج ترتاح لها الأفكار وتطمئن لها النفوس والأبصار، فتعلمت منه حروف الجر[5] ..... يتبع.

وهو يشتمل على مائة وعشرين صفحة من الحجم الكبير الذي يزيد عدد سطور كل صفحة منها على ثلاثين سطرا أو يزيد،

وقد أتي فيه المؤلف على ذكر العديد من خصائل شيخه أبي محمد المهاجي رحمه الله الذي أخذ العلم على يديه سنين، بزاوية سيدي محمد بن اعمر وقد شهد له بالمرتبة السامية في علوم كثيرة، ووصفه بالعالم البارع، والفضل والدين والذكاء والتفنن في العلوم، وقد رفع به ترفيعا عظيما، بقوله: (مقدما في المناظرة، مفخرة للإمامة، أوحد الناس في علم النحو والتاريخ واللغة وعلوم الدين[6])

ويقول: (فسار بعلمه عند شيوخ أهل الزاوية[7] بأحسن سيرة وأقوم طريقة إلى أن انتفع به من ذلك ما كان عنده من علم كتاب الله جل ثناؤه، كثير من رجالها ومن القادمين عليها من غير أهلها ومن أهل ثغورها[8] ...)

وبذلك نرى أن مثل هذا المخطوط وغيره كثير ممن لا زال يتوافر عليه موروثنا الثقافي، الذي وجدنا أصحابه من أكثر الناس حبا للغة العربية وتأثيرا بثقافاتها وتراثها العريق، ولهذا فإنه من الحيف اليوم أن لا يعرفهم قراء العربية حق معرفتهم، وهذا ما رأيت أن أقوم به بتقديم هذا المخطوط من حيث التحقيق والدراسة، الذي وجدت أن أهميته لا تنحصر في كونه أنه قد أتى لنا بتراجم وسير لكثير من الأعلام الذين لم نتوفر لهم اليوم على مصادر ومراجع تذكر، ولولا هذا المخطوط الذي جاءنا بمثل هؤلاء لباتوا بالنسبة عندنا مجهولين،

وقد قسمه إلى أبواب، أكبرها باب التراجم والسير، ثم باب النحو وقد حمله الكثير من التعابير اللغوية والأشعار التي يوردها كشاهد له، وقد يعمد في الكثير منها إلى عدم نسبتها لقائلها، ثم يأتي بأبواب أخرى هي أقل درجة من حيث الشاهد .....

الهوامش

[1]–أنظر كتاب "الأثر الزاهر في ذكر النسب الطاهر ، ص: 192 وما بعدها،

[2]– أنظر في ترجمته، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب لسيدي عيسى بن موسى في غوثيته المسماة بالبدورالورقة: 22، قوله:

وميمون أيوب المهاجي شقيقه ضياؤهما في شرقنا والمغارب

وفي البطحاء الخضراء سرهما بدا وجاءهما يشكو هزبر الكتائب

فما هما في البطحاء إلا فريدة حواها نظام المجد من كل جانب

وكتاب أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر، 111،

3– في الأصل "بجمع" والصواب ما أثبتناه،

4- الثنية : واحدها الثنايا، من السن المحكم، اللسان مادة "ثني" والمراد هنا صاحب غزيمة وإرادة قويتين،

5- كتاب زاوية سيدي محمد بن اعمر . سيرتها وتخصصاتها . ، للدكتور قدور ابراهيم عمار المهاجي، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، 1422 هـ 2001 م

6- مقدمة المخطوط، الورقة (5)

7- يريد بها شيوخ زاوية سيدي محمد بن اعمر،

8- المخطوط ، الورقة 9.